تنمية العمران الصحراوي و أثره على الخصوصية الثقافية

دراسة تحليلية لعمران مدينة ورقلة عبر التاريخ

جابر مليكة
جامعة ورقلة (الجزائر)
حماني فضيلة
المركز الجامعي إليزي (الجزائر)

مقدمة

تتعدد الأنماط العمرانية و تختلف من مدينة إلى أخرى بسبب اختلاف الثقافات و تنوعها، لأن العمران بصفة عامة و العمران العربي خاصة يعتبر النموذج الذي يعكس الحضارة و التاريخ المشترك في فترات زمنية مختلفة حيث تعبر هذه النماذج عن مفاهيم تتضمن المتطلبات الاجتماعية و الثقافية لكل مجتمع، و تتوقف على مجموعة من المميزات تحمل العديد من المعاني و الرموز الثقافية التي تعكس خصوصيته، إلا أن هذه النماذج و الأنماط العمرانية طرأت عليها العديد من التحولات من جراء الثورات في الكثير من الأحيان أو بهدف التنمية و التعمير.

فهل تؤثر التنمية العمرانية على الخصوصية الثقافية للمدينة الصحراوية؟

المحور الأول: تنمية الحضرية أو العمرانية

العمران:

العمران في اللغة مشتق من الكلمة اللاتينية (Urbs) و التي تعني المدينة، و يعد المهندس الإسباني Ildefons Cerda أول من استعمل كلمة Urbanisation لما كان يتصوره كعلم للتنظيم المجالي للمدن.

أما اصطلاحا فهو ذلك التنظيم المجالي الذي يهدف إلى إعطاء نظام معين للمدينة لكون هذه الأخيرة تعبر عن اللاتنظيم، واللاتوازن من الناحية الوظيفية المجالية.[1] كما يعرف العمران على أنه بمثابة النافذة المفتوحة على حضارة الشعوب و يعتبر كأداة للتعبير الفكري و الثقافي الحضاري كما يحدد إطار النمط الحياتي و كيفية تنميته في جميع النواحي.[2]

من خلال التعاريف السابقة يتبين أن العمران هو النمط أو النسيج العمراني الذي يعكس الصورة الثقافية و الفكرية للمجتمع في الواقع من خلال تنظيم معين يتلاءم مع محددات كل مجال.

تعريف المدينة:

تتميز المدينة في مظهرها العمراني المألوف عن القرية سواء من ناحية شكلها الخارجي أو مستواها الإداري وتعدد وظائفها، وقد اختلف العلماء في وضع تعريف محدد وموحد لمصطلح المدينة، لأنها ظاهرة معقدة تولدت عن تفاعل عدد من العوامل المتشابكة، ومن ثمة ظهرت تعاريف مختلفة حسب انتماء وتوجه كل عالم، وحسب المعيار المتخذ للتعريف كعدد السكان، والوظيفة الأساسية للمدينة و غيرها. حيث تعود في الأصل إلى كلمة "دين" التي هي سامية الأصل، واستعمالها كان من الأكاديميين والآشوريين للدلالة على "القانون" وفي معنى آخر تأتي الكلمة مرادفة

[1] عبد العزيز عقاقبة، **تسيير السياسة العمرانية في الجزائر**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم العلوم السياسية، جامعة باتنة، 2009-2010، ص 11.

[2] مريم لمام، **العمارة الصحراوية و أنماطها الاجتماعية (دراسة سوسيو أنثروبولوجية)**، مجلة الواحات للبحوث و الدراسات، العدد 15، جامعة غرداية، 2011، ص 323.

"للملك" أو "الحكم". و"الديان" كلمة استعملها الأرميون والعبريون بمعنى "القاضي" حيث تتميز المدينة بهاتين الخاصيتين أي الحكم والقضاء. و يثبت التفسير الفقهي هذا المفهوم, حيث ذكرت "المدينة" 17 مرة في القرآن الكريم، وفي كل مرة يوجد بها الحكام والملوك كميزة للسلطة.[3]

التعريف الاصطلاحي: وهو ينقسم إلى عدد من التعاريف بحسب معيار التعريف ولعل أبسطها وأكثرها شيوعا هو تعريفها على أنها تركز سكاني كثيف أو متوسط، يمارس السكان من خلاله نشاطات تنتمي إلى القطاع الثالث(الخدمات) .[4]

أما التعاريف الأكثر تفصيلا فمنها:

التعريف الإحصائي : من العلماء من عرف المدينة في ضوء عدد السكان باعتبار أن هناك حد أدنى للحجم السكاني الذي تعرف المدينة على أساس إحصائي، فقد اتفقت الهيئات الدولية على أن أي مكان يعيش فيه 20.000 نسمة فأكثر يعتبر مدينة[5] وهناك من يرى أن المدينة هي المحلة التي لا يقل عدد سكانها 5000 نسمة.[6]

التعريف السوسيولوجي: ولأن المدينة تعتبر ظاهرة متعددة الجوانب فإن لعلماء الاجتماع إسهامهم الخاص في تعريفها ومن ذلك ما ذهب إليه الدكتور حسين عبد الحميد رشوان بأنها " طراز متميز للحياة الجماعية والإنسانية، وهي نسبيا موطن أكبر وأكثف وأدوم للأفراد غير متجانس اجتماعيا".[7]

ولعل المفهوم الذي أعطاه "ريموند ليدري" "Raymond Ledrut " للمدينة يكشف هذا الجانب حيث يذكر أنها " ليست مجرد شيء مادي كآلة تشغيل أو يجب أن تشتغل جيدا، بل هي تجمع إنساني، يشغل موضعا معينا، يعيش أعضاءها بعلاقات متبادلة، تتحكم فيها بعض القوانين والأعراف وكذا العادات، فهي غير معزولة في نمطها عند التاريخ، وعند ذاكرة الشعوب،في حين تتميز باستقلالية معينة تخضع للحياة الحضرية الممكنة في وقت ما، في بيئة ما، وفي ظروف ميلاد معينة ".[8]

وعليه نستخلص التبادل القائم والتكامل بين النواحي الفيزيقية والاجتماعية في المدينة، فلا يمكن أن تقوم علاقات اجتماعية دون توفر المجال الذي تنمو عليه هذه العلاقات، كما أن أنماط العمران وشكل النسيج العمراني هي انعكاس لأفكار وقيم ومعتقدات السكان فالمدينة في أبسط صورها هي انعكاس للعلاقات الاجتماعية على المجال.

من كل التعاريف التي تم التطرق إليها نستخلص أنه لا يوجد تعريف جامع مانع للمدينة فلكل مجال من مجالات المعرفة التي تهتم بهذه الظاهرة الديناميكية وجهة نظره تجاهها وللتغلب على هذه الصعوبة في تعريف المدينة علينا محاولة إيجاد تعريف متعدد التخصصات، بحيث نجمع فيه ما بين وجهة نظر كل من الجغرافيين و الديمغرافيين وعلماء الاجتماع و الأنثروبولوجين أو المؤرخين، بحيث ننظر إلى المدينة على أنها كل متفاعل تشكله العوامل الثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية في ظروف معينة، وزمان ومكان معينين لتلبي حاجات الإنسان وتعكس أفكاره لأن عملية تنظيم المجال لأي مدينة تتحدد بعدة ضوابط طبيعية واجتماعية تؤثر في مجالها، فالمدينة إذن " تعبر عن شكل من

---

[3] محمد السيد غلاب ويسري عبد الرزاق الجوهري، **جغرافية الحضر**، دار الكتب الجامعية، مصر، ط 1، 1972، ص43.

4 La ville"(CD.ROM "Microsoft ENCARTA, 2003.

[5] حسين عبد الحميد رشوان، **مشكلات المدينة، دراسات في علم الاجتماع الحضري**، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، 1997، ص5

[6] عبد الفتاح محمد وهيبة، **جغرافية العمران**، منشـــأة المعارف، الإسكندرية، 1990، ص3.

[7] حسين عبد الحميد رشوان، **المدينة- دراسة في علم الاجتماع الحضري**، المكتب الجامعي الحديث، مصر، ط 5، 1989، ص5.

[8] الذيب بلقاسم، **المجال العمراني والسلوك الاجتماعي**، دراسة ميدانية مقارنة حالة بسكرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العمارة والعمران، جامعة قسنطينة، 1995، ص17.

أشكال تملك المجال، فالاختلاف الظاهر في استغلال المجال الذي تبدو عليه المدينة لا ينفصل عن التأثيرات المختلفة للتنظيم الاجتماعي في مجمله"[9].

3. التنمية الحضرية أو العمرانية

قبل التطرق إلى مفهوم التنمية العمرانية نحاول التعريف بمفهوم التنمية و أبعادها لتقريب المعنى.

مفهوم التنمية: تعتبر التنمية موضوعا قديما جديدا ومتجددا بتطلعات الأفراد والمجتمعات إلى الرقي من حالة لا يقنعون بها إلى حالة أخرى هي أكثر تحقيقا لأمانيهم ومتطلباتهم وأهدافهم والاهتمام بالتنمية، والنهضة والتقدم، والتجديد والإصلاح وغيرها من المفاهيم المقاربة من أكبر القضايا التي تشغل رجال الصناعة، والإدارة والاجتماع، ومخططي السياسة العامة على اختلاف منطلقاتهم و توجهاتهم وهو ما انعكس على تحديد المفهوم. فتعددت التعاريف والتفسيرات باختلاف المنطلقات، ومن بين هذه التعاريف:

تعريف هيئة الأمم المتحدة في عام 1955 والذي ينص على أن« التنمية عملية مرسومة لتقدم المجتمع جميعه اجتماعيا واقتصاديا، وتعتمد بقدر الإمكان على مبادرة المجتمع المحلي و اشتراكه».[10]

كما يمكن تعريفها على أنها: « ذلك التغيير نحو الأنماط المجتمعية التي تسمح لمجتمع ليس فقط بتحقيق القيم الإنسانية الأفضل، بل وأيضا بزيادة قدرته على التحكم والسيطرة على بيئته ومكانته السياسية وزيادة مدى سيطرة أفراده وتحكمهم في توجيه أمورهم و شؤونهم».[11]

و من هذا التعريف نستخلص أن التنمية عملية إصلاح وتحول في أحوال المجتمع مع التأكيد على شموليتها (لا تقتصر على النواحي الاقتصادية فقط) وغايتها الوصول إلى توفير المطالب الأساسية للحياة الإنسانية بغية تحقيق الكرامة الإنسانية.

و يذهب ويبسترWebster إلى أن التنمية "مفهوم معنوي يعبر عن عملية ديناميكية تتكون من سلسلة من التغييرات الوظيفية و الهيكلية في المجتمع تحدث نتيجة التغير الإرادي لتوجيه التفاعل بين الطاقات البشرية في المجتمع، وبين عوامل البيئة بهدف زيادة قدرة المجتمع على البقاء والنمو".[12]

ومن كل التعاريف السابقة يمكننا أن نستخلص النقاط التالية:

* التنمية عملية تغيير مقصودة إلى الأحسن والأفضل، بحيث تهدف إلى تحقيق الرفاهية والكرامة الإنسانية.
* أنها عملية تحسين ونهوض شاملة لجميع نواحي الحياة ولا تقتصر على ناحية دون أخرى.
* تعتمد في سيرها على تظافر الجهود بين الشعوب والحكومات بما توفره من فنيين ومعدات وأدوات و اعتمادات مالية، وتشريعات.
* تقوم برامج التنمية على أساس الاحتياجات الفعلية للسكان حيث تفرض الحالة الراهنة للمجتمع وما فيها من ضرورات أولويات معينة تتعلق بالقطاعات أو الأقاليم أو الجماعات.

[9] Encyclopédie universalise**, ville et vie politique**, France, S.A, 1997, (CD ROM)

[10] عبد الرحيم تمام أبو كريشة، **دراسات في علم اجتماع التنمية**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2003، ص39.

[11] **المرجع نفسه**، ص12.

[12] محمد عباس إبراهيم، **التنمية والعشوائيات الحضرية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص108.

مفهوم التنمية الحضرية(العمرانية): رغم أن التنمية الحضرية تعتبر مطلبا ملحا لما تعانيه كثيرا من المدن من مشاكل اجتماعية واقتصادية وثقافية وعمرانية نتيجة لعوامل متعددة إلا أنه من الصعب وضع تعريف واضح المعالم لها نتيجة لعدة صعوبات أهمها:

- اختلاف الترجمة أو صعوبة ترجمة المصطلح من اللغات الأخرى حيث تميل معظم الأدبيات إلى ترجمة مصطلح Développement Urbaine (فرنسية) Urbain Développement (إنجليزية) إلى نمو المدن أو النمو الحضري ويقصد بالأولى توسع المدن والثانية زيادة عدد سكانها وكثافتهم.
- اختلاف التخصصات العلمية التي تدرس الظاهرة الحضرية وما يتعلق بها من جوانب ومظاهر، فيميل الدارسون للهندسة المعمارية استعمال مصطلح التنمية العمرانية، وهي تمس النواحي الفيزيقية المتصلة بالمدينة وتحدد مجالاتها في توفير الخدمات والإسكان والموارد البيئية والنقل والحركة في المدينة وكذا المرافق العامة وتوزيعها والخطط المرحلية لها، وتحديد أنواع استعمالات الأراضي الحالية والمستقبلية ووضع الضوابط المحددة لتلك الاستعمالات، ووضع إجراءات تخطيطية للتنسيق بين الإدارات الحضرية. [13]

وفي النصف الثاني من القرن العشرين ظهر مفهوم جديد للتنمية الحضرية، فقد كتب سكوت Scot أن التنمية الحضرية ترتبط بعدة متغيرات مثل ضمان الحاجات البيولوجية والاجتماعية للمدن وحركة السكان، كما اهتم بالأحياء المختلفة، وظهرت أعمال أخرى تتعلق ببرامج تجديد المدن، وبرامج المدن النموذجية، ويتمثل ذلك في حركة تخطيط المدن والقرى في بريطانيا عام 1947. وفي عام 1978 ظهر نوع من التنمية يهتم بحركة الإسكان، وهكذا ترتبط التنمية الحضرية بعملية التخطيط الحضري، فهي تضع وسائل وأهدافا ترتبط بنمط استخدام الأرض[14].

في ضوء هذه التعاريف حول التنمية الحضرية نستخلص بأنها عملية متعددة الجوانب ومتداخلة العناصر، فهذا المفهوم ينقسم إلى العناصر التالية:

- **العنصر الاقتصادي:** ويشمل زيادة الدخل الفردي، استخدام التكنولوجيا، تحول الأنشطة الزراعية إلى صناعة وخدمات، معدلات الإنتاج وغيرها.

- **العنصر الإجتماعي:** ويشمل عناصر التنمية الاجتماعية لمجتمع المدينة، كرفع مستوى خدمات التعليم العام والمهني والعالي، وتوفير الخدمات الصحية، محاربة الأمية.

- **العنصر العمراني:** وله علاقة بالتخطيط الحضري وحركة الإسكان وتجديد المدن وهو ينقسم إلى بعدين أساسيين الأول يتعلق بالتركيب الداخلي للمدينة والذي يشمل السكن ونظام الشوارع، والمخطط العام للمدينة استجابة لزيادة السكان، أما الثاني فيهتم باستعمالات الأرض في المدينة للأغراض السكنية، والتجارية، والصناعية، والسكنية وغيرها.

وبسبب صعوبة الإلمام بكل عناصر المفهوم وأبعاده ونظرا للتصور العام للبحث، فسيتم اتخاذ مفهوم التنمية الحضرية في عنصرها العمراني ببعديه، وبالتالي نعتمد في مراحل هذا البحث على أن التنمية الحضرية عبارة عن عملية تدخل في المجال الحضري العمراني تمليه ضرورات محددة كزيادة عدد السكان، وتنامي احتياجاتهم إلى المرافق العمومية كالسكن والشوارع، ومختلف استخدامات الأرض، بهدف ترقية الوسط الحضري والعمراني ليكون أكثر استجابة لحاجات السكان، ولتتلاءم وضرورات وأهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع المدينة الصحراوية، لأنه من الضروري التفكير في الأرضية التي تتم عليها برامج التنمية وتهيئتها لاستيعاب مثل هذه المشاريع قبل التفكير في هذه البرامج.

[13] WWW.suhuf.net.sa / 1999 jaz/jul/30/hjhdlines. 1 htm. Le 17/01/2004

[14] حسين عبد الحميد رشوان، **دور المتغيرات الاجتماعية في التنمية الحضرية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2004، ص 17-18

التخطيط العمراني: إن عملية التنمية العمرانية تتحكم فيها العديد من العوامل المادية و التقنية، مثل عملية التخطيط الذي تختلف خصائصه من بيئة إلى أخرى و من منطقة إلى أخرى على أساس أن التخطيط يعتمد بدوره على مقاييس نوعية و كمية تعكس القيم الاجتماعية و الأخلاقية و الاقتصادية، و العادات المتأصلة و القيم الجمالية للمجتمع، فهو من أدوات التنمية العمرانية الأساسية، غير أن التخطيط في مدن العالم الثالث يواجه ظواهر اجتماعية معقدة نتيجة نمو وتطور المدن، و من أهمها:[15]

- **الظواهر الطبيعية ، و من أبرزها:**

- عدم وجود تناسق في عملية التخطيط و استخدام نماذج متعددة من البناء و أشكال هندسية مختلفة و عدم مراعاة التاريخ المادي للمدينة.
- اختلاط استعمالات الأرض داخل المدينة و تشويه منظر المساكن بسبب تحويلها إلى مكاتب إدارية و محلات تجارية
- الضغط على مرافق الخدمات بسبب الهوة بين زيادة السكان و زيادة حجم و قدرة المرافق و الخدمات المختلفة.

- **الظواهر الاجتماعية**، و أهمها:

- عدم التجانس في العلاقات الاجتماعية مما يعرض الفرد إلى مؤثرات اجتماعية و ثقافية متضاربة الذي ينتج عنه صعوبة تكوين علاقات اجتماعية و إنسانية شخصية بسيطة.
- تحول العلاقات إلى علاقات عمل و ضعف العلاقات الأسرية القرابية.
- تعدد الثقافات في المدينة بسبب اختلاف الثقافات و الجنسيات التي تجعل العيش صعب في المدينة.

- **الظواهر التنظيمية**، من بينها:

- فقدان الشخصية المميزة للمدينة و استيراد أنماط غربية جديدة لا تبث أية صلة بالتراث و التقاليد المعمارية.
- الاعتماد على البناءات الحضرية أكثر من الإنتاجية.

و عليه ترتبط التنمية العمرانية بعملية التخطيط من خلال تكامل الظواهر المادية و الاجتماعية و التنظيمية للحفاظ على الخصائص الاجتماعية و الثقافية التي تعبر عن التجمعات التي تتواجد فيها، لأن العمران بصفة عامة هو انعكاس للنمط الثقافي و الديني و الاقتصادي و القانوني و للتقاليد و عادات المجتمع الذي تحيا و تتطور فيه. [16]

المحور الثاني: الإيكولوجيا الحضرية و الفرق بين المجتمع الريفي و المجتمع الحضري

الايكولوجيا الحضرية إن ظهور المدينة أدى إلى ما يسمى بالإيكولوجيا الحضرية، فهو مصطلح مستعار من علم البيولوجيا الذي يعني العلم الذي يهتم بدراسة العلاقات بين الكائنات الحية و بيئتها الطبيعية. و تكشف الاتجاهات الايكولوجية الحديثة المتخصصة خاصة الذي يمثلها كل من موريس Morris، و شولتز Schultz، و شور Schore عن العلاقات الاجتماعية من جهة و من جهة أخرى تهتم بدراسة أثر الحياة الحضرية على الشروط الموضوعية كالبيئة الخارجية، و التركيبة السكانية و على دور القيم الاجتماعية و الثقافية كمفتاح ضروري لفهم ما يسمى بالشروط الموضوعية للحياة الإنسانية بوجه عام. [17]

---

[15] هاشم العبود الموسوي، حيدر صلاح يعقوب، **التخطيط و التصميم الحضري-دراسة نظرية تطبيقية حول المشاكل الحضرية**، ط1، دار حامد للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2006، ص ص 20-23.

[16] عبد الحميد دليمي، **السكان و الإسكان**، مخبر الإنسان و المدينة، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، ص 59.

[17] هناء محمد الجوهري، **علم الاجتماع الحضري**، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة، ط1، عمان، الأردن، 2009، ص 43.

1. خصائص المجتمع الريفي و المجتمع الحضري : يعتبر العمران بصفة عامة، و العمران العربي خاصة من حيث الشكل، النموذج الذي يعكس الحضارة و التاريخ في فترات زمنية مختلفة، كونها ظاهرة حضارية ذات خصوصية متميزة تحمل العديد من المعاني و الرموز الثقافية الهامة. كما يبرز النمط العمراني الهوية التي تشكلت فيها الخصائص البيئية و الاجتماعية و مقوماتها الفنية و التاريخ المشترك. زيادة إلى المبادئ العقائدية و الدينية و القيم و الذاكرة الروحية في إطار وحدة ثقافية كلية متجانسة تعبر عن القيم و الخصائص الثقافية و الاجتماعية لكل مجتمع.[18] و إذا كنا بصدد كشف الحياة الحضرية داخل المدينة و توضيح أهم أنماطها و خصائصها التي تميزها عن غيرها من المجتمعات الريفية، فلابد من التركيز على عدة خصائص تميزها في طبيعتها و خصائصها عن غيرها من المجتمعات.[19] فقد اهتم العديد من علماء الاجتماع بدراسة الفروق بين المجتمع الريفي و المجتمع الحضري في شكل ثنائيات من أجل التمييز بين خصائص كل منهما، و من أبرز هؤلاء المفكرين "عبد الرحمن بن خلدون" الذي خصص فصلا للتمييز بين البدو و الحضر، و أرجع الاختلاف بينهما إلى طرق كسب القوت و طريقة العيش و المسكن، و يقول في ذلك أن أهل البدو يعتمدون على الزراعة و الفلح و الرعي، في حين المجتمع الحضري ينتحل الصناعة و التجارة. و يضيف إلى أن أهل البدو يصنعون بيوتهم من الشعر و الوبر أو الشجر أو من الطين و الحجارة أو يتخذون الكهوف مسكن لهم، بينما أهل الحضر يتخذون القصور و المنازل، مؤكدا أن أصل الحضارة هي البداوة ولا توجد حضارة تسبقها بدواة.[20]

و من هذا المنطلق تصور **فرديناند تونيز** Ferdinand Tonnies و هو عالم اجتماع ألماني أن هناك المجتمع محلي و المجتمع، فالأول تسوده الإرادة الطبيعية natural well، و الناس فيه يؤمنون بأهمية العلاقات الاجتماعية كغاية في حد ذاتها و هي غير مقرونة بمصلحة. بينما المجتمع هو الذي تسود فيه الإرادة العقلانية rational well حيث تبنى فيه العلاقات على أساس الوصول إلى غايات أو أهداف معينة متفق عليها مسبقا.[21] و أشار **تونيز** إلى أن هناك عوامل أساسية تتحكم في الانتقال من المجتمع الأول إلى المجتمع الثاني و لعبت دورا مميزا في عملية التطور الاجتماعي و هي العلم و تحضر المجتمع و ظهور المدن و الإنتاج الصناعي الرأسمالي و ازدهار التجارة.[22] و يرى **روبرت ريدفيلد** و هو عالم أنثروبولوجي أمريكي إلى أن هناك مجتمع ريفي و مجتمع المدينة، فالأول يتميز بقلة عدد سكانه و كل فرد فيه يعرف الآخر، و هو مجتمع متضامن و متجانس و التقسيم الوظيفي بين الجنسين يكاد يكون معدوم و السلوك فيه عفوي. أما مجتمع المدينة فهو على نقيض المجتمع الريفي.[23]

و في نفس السياق وضع سوروكن sorokin و زيمرمان Zimmerman ثمانية خصائص يختلف بها المجتمع الحضري عن المجتمع الريفي، و هي: [24]

1. المهنة في المجتمعات الحضرية الريفية.
2. البيئة في كلا المجتمعين و تأثيرها على النشاط الاجتماعي.

---

[18] أحمد محمد الحزمي، **النمط المعماري للمدن الأثرية في الوطن العربي-دراسة مقارنة**، المؤتمر الهندسي الثاني، جامعة عدن، الجمهورية اليمنية، 30-31 مارس 2009، ص 251-252.

[19] محمد عباس إبراهيم، **التنمية و العشوائيات الحضرية**، دار المعرفة الجامعية للطبع و النشر و التوزيع، الاسكندرية، 2000، ص 21.

[20] عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة العلامة ابن خلدون(ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)**، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، طبعة جديدة و منقحة، بيروت، لبنان، 2007، ص ص 134-135.

[21] لوجلي صالح الزوي، **علم الاجتماع الحضري**، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط1، 2002، ص ص 60- 61.

[22] حسين عبد الحميد أحمد رشوان، **دور المتغيرات الاجتماعية في التنمية الحضرية-دراسة في علم الاجتماع الحضري**، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2004، ص36.

[23] لوجلي صالح الزوي، **مرجع سابق**، ص 63.

[24] محمد عباس ابراهيم، **التنمية و العشوائيات الحضرية**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2000، ص 23.

3. حجم المجتمع المحلي.
4. الكثافة السكانية في الريف و الحضر.
5. عملية التجانس أو لا تجانس السكان في المجتمع الحضري و المجتمع الريفي.
6. التمايز و التشريح الاجتماعي.
7. عملية التنقل و الإقبال عليها.
8. التفاعل الاجتماعي و أنماط الاتصال.

و تأسيسا على ما سبق نجد أن **ابن خلدون** اعتمد في مقارنته على البعد الوظيفي و طرق العيش، على خلاف **تونيز** الذي استعان بالعلاقات الاجتماعية كمؤشر لتحديد الفروق بين المجتمعين. بينما نجد العالم الأنثروبولوجي **روبرت ريدفيلد** ركز على العديد من الخصائص، مثل عدد السكان و التقسيم الوظيفي و درجة التجانس و اللاتجانس للتمييز بين المجتمع الريفي و المجتمع الحضري، في حين أضاف كل من **سوروكن** و **زيمرمان** خصائص أخرى من أهمها التفاعل الاجتماعي و أنماط الاتصال. و هو ما يوضح اختلاف الخصائص من عالم إلى آخر، و عدم وضوحها في رسم حقيقة كل من المجتمع الريفي و المجتمع الحضري.

ثالثا: مدينة ورقلة بين الخصوصية الثقافية و التطور العمراني(الدراسة التحليلية):

إن العمارة الجزائرية باعتبارها أحد الأنماط العربية، تختص بنسيج عمراني خاص بها، كما تحتفظ بأنماط سلوكية و قيم اجتماعية لها جذور تاريخية تختلف من بيئة اجتماعية إلى أخرى باعتبار أن كل مجتمع بشري له ثقافة خاصة به و أسلوب حياة يميزه عن الآخر، رغم وجود بعض نقاط التشابه من خلال التاريخ المشترك أو البيئة الجغرافية الواحدة.

1. لمحة تاريخية عن مدينة ورقلة:

- **الموقع الفلكي و الجغرافي** تعد مدينة ورقلة أحد الولايات الجنوب الجزائري، تقع على خط طول 5° 15' شرقا وخط عرض 31° 58' شمالا في الجنوب الشرقي من الوطن،مساحتها:163.233كم2، تعد من أكبر الجماعات الإدارية، يحدها من الشمـــال : ولايات الجلفة، الوادي وبسكرة، ومن الشـــرق الجمهورية التونسية، ومن الغـــرب ولاية غرداية، ومن الجنـــوب ولايتي تمنراست وإليزي . و يقع حوض ورقلة في الجنوب الشرقي للجزائر وهو جزء من المنخفض الصحراوي الكبير يبلغ طوله 30 كلم، وعرضه يتراوح بين 12 و18 كلم، وارتفاعه بين 103 و150 فوق مستوى سطح البحر، يمتد بين هضبتين، الأولى تحده من الغرب، ارتفاعها 230م والثانية من الشرق بارتفاع يناهز 160م. وهي متصلة برمال العرق الشرقي الكبير . [25]

2. التطور التاريخي لمدينة ورقلة : يرجع ظهور مدينة ورقلة إلى ما قبل التاريخ أين عاشت شعوب قديمة في عصور سبقت العصر المسيحي و الهجري[26]. إلا أن هذه الشعوب شهدت العديد من التغيرات و التطورات في التركيبة الصحراوية و نمط عيشها بسبب تعرضها للحروب المتتالية و إعادة بناءها من طرف أقلية مما جعلها تبقى و تستمر.

و من بين الأمثلة على ذلك التدمير الوحشي الذي شهدته مدينة ورقلة سنة 1075، و الذي تسبب في اختفاء العديد من الآثار العمرانية و البشرية لهذه المدينة، إلا أن البعض من الأفراد لم يخافوا و فضلوا البقاء لا الرحيل، و شكلوا مجموعة مهمة تتكون من الإباضيين و المالكيين الذين اتفقوا بعد شجار و خصام على إعادة بناء مساكن و إصلاح الغابات أو الحدائق حتى تتواصل الحياة و تستمر بهذه المنطقة. [27]

[25] موقع مديرية السياحة و الصناعة التقليدية لولاية ورقلة http://www.dtaouargla.com/pages-view-5.html

[26] دنيس بيلي و يوسف طواف، **ورقلة واحة عبر التاريخ، 200 صورة من المحفوظات**، جمعية القصر للثقافة و الاصلاح، ورقلة، 2011، ص 12.

[27] Jean Lethielleux, **Ouargla cité saharienne des origines au début du xxe siècle**, libraire orientaliste Paul Guehner, S.A, 1983, Paris, p 87

و استمرت عملية إعادة البناء لمدينة ورقلة التي تميزت بقصورها المتعددة التي كانت تعبر عن البيئة الطبيعية و الاجتماعية و الثقافية.

و في عهد الاستعمار الفرنسي شهدت ظهور المدينة الجديدة أين أنشأت خارج القصر في 1886 و 1887 مثل برج بني ثور المعروف بالبرج الأحمر، و بعد 1918 سمي ببرج شانديز، ثم برج لوتو 1915- 1917 و الذي أصبح أول مقر للولاية بعد الاستقلال، و هو يتواجد على يمين مدخل المستشفى العسكري في وقتنا الحالي. و بعدها ظهرت العديد من الأحياء الجديدة منذ 1958 و التي تميز المنطقة إلى يومنا هذا مثل المخادمة، تازقرارت، الشرفة، و لاسيليس، و التي كانت تحتوي القليل من السكان آنذاك.[28] بينما ورقلة الحالية أصبحت تضم 21 بلدية و 10 دوائر و كثافة سكانية تفوق 602.000 نسمة و متنوعة. [29]

3. النمط العمراني لمدينة ورقلة و مميزاته: اختلف المؤرخين حول تسمية مدينة ورقلة مما جعلها تتعدد، فمنهم من اختار لها إسم وركلا، و ورقلان ، و ورام، و ورجلان...[30] و ارتبط النمط العمراني لهذه المدينة بالعديد من العوامل البيئية و الرموز التاريخية، ففي نص مخطوط و ناذر للأنطوان جياكوبيتي Antoine Gacobetti سنة 1900 كتب فيه عن خصوصية المنازل الوارجلانية، و قال أنها تتمثل في الواجهات الرئيسية التي تزينها رسومات بارزة و كتابات بالعربية تتضمن تاريخ البناء، كما تحمل هذه الأبواب نقوش في شكل خطوط متداخلة و شكلا آخر قائم تعلوه دائرة. [31]و تختلف الزخرفات التقليدية على الأبواب من مسكن إلى آخر إلا أنها تحافظ على نوع معين الذي يكون على شكل خطوط متداخلة كما أسلفنا الذكر.

كما تميزت مدينة ورقلة بتعدد قصورها، فهناك من ذكر أنها 7قصور بينما تتواجد 4 قصور لها آثار، و كانت شوارعها عبارة عن أزقة مغطاة تشكل امتدادا للمباني المجاورة، و تعتبر الأماكن المفضلة للسكان في فصل الصيف لما توفره من ظل و هواء منعش بارد، فضلا عن كونها أماكن للاجتماعات.

و ما كان يميز مدينة ورقلة أيضا ساحة أفلاترس Flatters التي تحمل اسم ساحة الشهداء في وقتنا الحالي، إضافة إلى نمط أسواقها الذي يرجع إلى القرن 17 و التي كانت إما مربعة الشكل أو في شكل أقواس. [32]

[28] دنيس بيلي و يوسف طواف، **مرجع سابق** ص 81- 85.

[29] الوكالة الوطنية لتطوير الاستثمار http://www.andi.dz/index.php/ar/monographie-des-wilayas?id=138

[30] عبد الرحمان حاجي، **ورقلة تاريخ و حضارة**، ج2، 2010، ص 81.

[31] دنيس بيلي و يوسف طواف، **مرجع سابق**، ص 20

[32] نفس المرجع السابق، ص 49

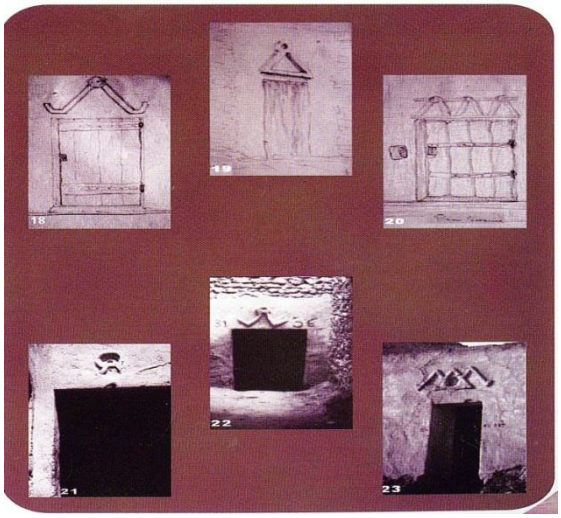

صورة تمثل الزخرفات التقليدية على أبواب المساكن

المصدر: دني سبيلي و يوسف طواف، ورقلة واحة عبر التاريخ 200 صورة من المحفوظات، ص 17

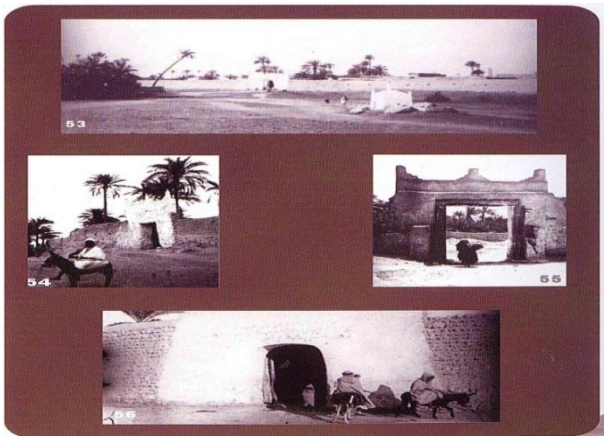

صورة تمثل أبواب القصر قبل التجديد

المصدر: دنيس بيلي و يوسف طواف، مرجع سابق، ص 39

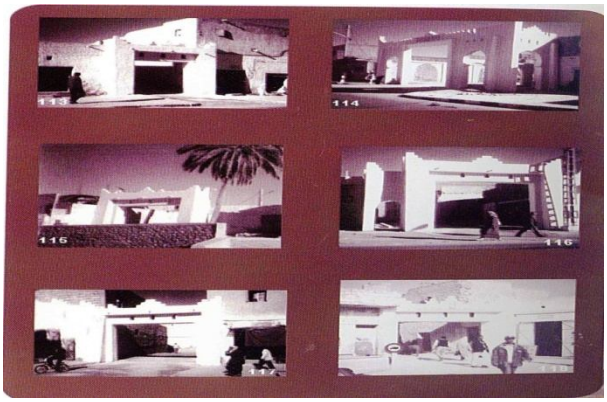

صورة تمثل أبواب القصر بعد التجديد

المصدر: دنيس بيلي و يوسف طواف، مرجع سابق، ص 6

أما في وقتنا الحاضر أصبح النموذج العمراني لهذه المنطقة متعدد الأشكال و الأحجام و طغيان العمارة التي تتنافى خصائصها مع التركيبة السكانية و البيئة الطبيعية من جهة، و من جهة أخرى عدم مراعاة التاريخ المادي للمدينة مما انعكس ذلك بالسلب على التفاعلات الاجتماعية بسبب استيراد أنماط غربية تحت رداء التنمية الحضرية.

صور جديدة لمدينة ورقلة

و بشكل عام فإن الطابع العمراني الحديث الذي فرض على المجتمع الورقلي أو المجتمع المحلي لمدينة ورقلة أصبح في صراع بين شكله الهندسي من حيث تعدده و اختلافه، و بين ما تحمله ثنائيات الفروق الريفية الحضرية، لأن الملاحظ للعلاقات الاجتماعية يجدها في أخذ و رد بين علاقات اجتماعية تسودها الإرادة الفطرية أو الطبيعية بين الآباء و الأبناء و الأقارب و الجيران و الأصدقاء فهي تتسم بالدفء العميق و الإشباع حسب **تونيز**. و تارة تحمل هذه العلاقات معنى المجتمع المتعاقد الذي أراد منه **تونيز** معنى العلاقات الاجتماعية التي تفصل بين الأفراد و كل فرد يعتمد على نفسه بمعزل عن الآخرين. و رغم وجود تناغم بين الإرادات إلا أنها على أساس شخصي يتضمن معنى الإرادة العقلية.

و إذا ما أسقطنا وجهة نظر **ردفيلد** على المجتمع المحلي لمدينة ورقلة نجد أن العلاقات الاجتماعية تميل إلى أن تكون ذات طبيعة أولية، بينما التحول إلى المجتمع الحضري تجعلها تتميز بدرجة من الفردية و التفكك الثقافي الذي جعل من العلاقات الاجتماعية ذات طبيعة ثانوية في بعض الأحيان.

لأن كلما ازدادت المدينة نموا في الحجم بازدياد عدد المقيمين بها، تضعف الروابط بين هؤلاء المقيمين و تتعرض العلاقات الاجتماعية للتغير و التبدل و تصبح سطحية و مؤقتة و سريعة الزوال. [33]

خلاصة : إن المتتبع لتاريخ عمران مدينة ورقلة يجدها مثل أي مدينة عربية إسلامية لها تاريخ حضاري يتضمن مضامين و أبعاد ثقافية تعكس عادات و تقاليد مميزة و عريقة و تفاعلات اجتماعية تظهر في العديد من العلاقات، غير أن هذه الأبعاد الثقافية و الاجتماعية طرأت عليها العديد من التغيرات التي أثرت بدورها على النمط الصحراوي التقليدي بعدما طبقت عملية التنمية الحضرية التي تفتقد إلى التخطيط المنهجي و المعايير التصميمية التي تتلاءم مع البيئة الصحراوية، كما أنها لم تراعي التراث و العقائد المجتمعية التي تعبر عن الواقع المحلي. فلا وجود لحضارة تخلو من آثار الماضي، و "**العمارة هي سجل لعقائد المجتمع حسب رأي الييل سارينيين**"[34]. و بالتالي لابد من الحفاظ على الأصالة العمرانية عند التخطيط الحضري، لأنها تتضمن تعريفا للمدينة من خلال ما تحمله من خصائص و ثقافات تميزها عن الآخر.

[33] هناء محمد الجوهري، **علم الاجتماع الحضري**، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة،ط1، عمان، الأردن، 2009، ص 41-48.

[34] حسين عبد الحميد أحمد رشوان، **دور المتغيرات الاجتماعية في التنمية الحضرية-دراسة في علم الاجتماع الحضري**، مرجع سابق، ص62.